التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وفي غربها : دراسة مقارنة

بروفسير/ الأمين أبومنقة محمد

أثبتت أدلة كثيرة أن العرب قد عرفوا طريقهم إلى سواحل شرق إفريقيا قبل ظهور الإسلام، ثم ترسخت أقدامهم فيها على مر الأزمان حتى صار جزءاً من الجزيرة العربية في حقبة من التاريخ يحكم من زنجبار. ولا شك أن للموقع الجغرافي لهذا الإقليم دوراً مهماً في هذا الأمر، إذ لا يفصل بينه وبين الجزيرة العربية سوى مساحة من الماء. وقد ترتب على ذلك انتشار الثقافة العربية الإسلامية على امتداد هذه السواحل والتي غطت جل مناحي الحياة، وانعكست في اللغة السواحلية وآدابها على وجه الخصوص.

وفي الجانب الآخر نجد أن إقليم غرب إفريقيا –وبالتحديد بلاد برنو وبلاد هوسا سابقاً – لم يشهد اتصالاً مباشراً مع العرب بنفس ذلك القدر، كما لم تصل الدعوة الإسلامية إلى بلاد هوسا بصورة ملموسة إلا في منتصف القرن الخامس عشر. ولكن رغم ذلك تميز التاريخ الإسلامي لهذا الإقليم بتطور مبكر لمراكز إشعاع فكري قوامها نخبة من العلماء المحليين برعوا في التأليف باللغة العربية، من أمثال دان مسني (ابن العارف) ودان مرينا (ابن الصباغ) وجبريل بن عمر وعلماء الخلافة الصكتية وبقية العقد الفريدوقد خلّف لنا هؤلاء العلماء المئات من الأعمال القيمة باللغة العربية وفي اللغة العر بية نفسها. أما العلماء والأدباء في المجتمع السواحيلي فقد حصروا أنفسهم في التأليف باللغة السواحيلية وحدها، وا ذا كانت هناك أعمال باللغة العربية فهي قليلة نسبياً، ومعظمها من تأليف علماء من ذوي الأصول العربية أو الفارسية.

إذاً ما هي أسباب تقدم الحركة العلمية باللغة العربية في إقليم غرب إفريقيا وتأخرها في إقليم شرق إفريقيا؟ كيف ساهم الموقع الجغرافي لكل من الإقليمين في هذا الوضع؟ ما هو العنصر الأقوى في شحذ الهمم لنشأة التراث العربي الإسلامي المكتوب؟ أهي العروبة أم الإسلام؟ هذا ما ستسعى الورقة إلى استجلائه ومناقشته. ويقتصر 'إقليم شرق إفريقيا' في هذا المقال على المساحة التي تغطيها دولتا تنزانيا وكينيا الحاليتان، بينما ينحصر 'إقليم غرب إفريقيا' في بلاد هوسا القديمة (شمال نيجيريا وجنوب النيجر الحاليتين).

العرب والإسلام في شرق إفريقيا وغربها: الجغرافيا والتاريخ

ليس هناك ما نود إضافته حول تاريخ الاتصال العربي الإسلامي بإقليمي شرق وغرب إفريقيا، لأن المؤرخين المتخصصين في هذا المجال، من أوربيين وعرب وأفارقة لم يتركوا شاردةو لا واردة إلا وأشاروا إليها. لذلك لن نتناول الجوانب التاريخية لصلة العرب والمسلمين بهذين الإقليمين إلا بالقدر الذي يخدم

أطروحتنا ويعيننا على الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها في مقدمة هذا المقال، ومن ثم الوصول إلى ما نحن بصدد إثباته.ومن الطبيعي أن نتخذ التاريخ مدخلاً لدراسة كهذه، ولكن في هذه الدراسة على وجه الخصوص لابد أن نتناول الجانب التاريخيمقروناً بالعامل الجغرافي، حيث يشكلان معاً مرتكزاً أساساً نقوم من خلاله بتفسير النتائج التي نروم التوصل إليها.

نبذة حول تاريخ الوجود العربي (والإسلامي) في إقليم شرق إفريقيا

تتفق كل المصادر والمراجع على ربط الصلات التاريخية والثقافية بين سواحل شرق إفريقيا والجزيرة العربية بالرياح الموسمية الشمالية الشرقية التي تهب إلى الجنوب الغربي في الفترة من ديسمبر إلى مارس، والرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تهب إلى الشمال الشرقي في الفترة من يونيو إلى أكتوبر. وقد استفاد البحارة والتجار العرب من هذه الظاهرة الجغرافية فحطوا أرجلهم منذ وقت مبكر جداً في المنطقة قيد الدراسة، والتي لا يفصل بينها وبين بلادهم – كما أسلفنا – سوى البحر. وقد استمروا على هذا المنوال لأكثر من ألف عام، كان يقوى فيها حضورهم ويضعف حسب تقلب الزمن. ولم تقتصر ظاهرة الرياح الموسمية على فتح الطريق للعرب للوصول إلى تلك المنطقة فحسب، بل الأهم من ذلك، فيما يخص هذه الدراسة ، هو أن دورة هذه الرياح كانت تجبرهم على الانتظار بهذه السواحل لفترة قد تمتد لأكثر من ثلاثة أشهر إلى حين تغير اتجاه هبوبها. وقد لا يخفى على القارئ مترتبات هذا الانتظار من تداخل بينهم وبين السكان المحليين وصل حد التزاوج.

لعل أقدم إشارة إلى الوجود العربي في هذه السواحل ما جاء في كتاب "دليل الرحلة الدائرية" في ذكره لموقع يسمى رباتا Rhapata[1] الذي يميل بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن هذا الاسم مشتق من اللفظ العربي "ربط" أي "مربط السفن"[2]. وقد ورد هذا الاسم في سياق وصف مؤلف الكتاب للسكان الموجودين حول هذا الموقع في القرن الأول الميلادي. ويتحدث المؤلف في نفس السياق عن حركة السفن الإغريقية والرومانية التي تمر على المدن التجارية في سواحل شرق إفريقيا، ويضيف أنه "كان من المألوف رؤية التجار العرب في مناطق الساحل الشرقي لإفريقيا حتى راباتا"[3]. وعلى الرغم من أن مثل هذه المعلومات الشحيحة لا تكفي لإعطاء فكرة متكاملة عن حجم الوجود العربي في هذه المنطقة في تلك الحقبة من الزمن، إلا أنها تشير إلى الوجود المبكر للعرب بسواحل شرق إفريقيا.

---

[1]- 'الرحلة الدائرية حول البحر' الإريتري، مجهول المؤلف. انظر:

Zoe Marsh, *East Africa Through Contemporary Records*, quoted as "The Priplus of the Erytherian Sea", by an anonymous writer, translated by J.L. Whitely, Cambridge Uni. Press., 1961, p. 5.

[2]- انظر عبدالرحمن أحمد عثمان (2001): المؤثرات الإسلامية والمسيحية على الثقافة السواحلية. الخرطوم، دار جامعة إفريقيا العلمية للنشر، ص 27.

[3] - نقلاً من نفس المصدر، ص 29.

أما الهجرات العربية المستوثق منها (من خلال المخطوطات : مخطوطتي كلوا وباتي) ذات الشكل الاستيطاني والأثر الملموس فقد جرت – حسب سيد حامد حريز[4]- خلال القرن السابع الميلادي، ونتج عنها بناء بعض المدن الساحلية المهمة، مثل ممبسا وزنجبار وكلوا ومالندي. ويمثل العمانيون أول وأهم عناصر هذه الهجرات، وتبعتهم مجموعة من الشيرازيين الذين قدموا في القرن العاشر الميلادي من مدينة شيراز بإيران الحالية واستقروا في أماكن متفرقة على الساحل والجزر[5]. وهكذا توالت هجرات العرب وغير العرب من المسلمين، وتجاوزت دوافع هذه الهجرات الحدود التجارية فأصبحت تحركها النزاعات السياسية في البلد الأم، وأصبح من الطبيعي أن تتخذ طابعاً سياسياً في بلاد المهجر أيضاً .

ثم شهدت هذه المنطقة بعد ذلك حقبة جديدة من التاريخ امتدت لقرابة القرنين من الزمان (1500-1700)بعامل الجغرافيا أيضاً . فقد برز البرتغاليون في مطلع القرن السادس عشر ملوكاً للبحر، وفي سعيهم للوصول إلى جزر الهند الشرقية رأوا في سواحل شرق إفريقيا موقعاً تجارياً واستراتيجياً جذاباً يسيل له اللعاب ولم تكن وقتئذٍ تعوزهم القوة والحيلة والتكتيك، فوقعت المنطقة تحت سيطرتهم حتى استردها منهم العمانيون في نهاية العقد الثاني من القرن الثامن عشر. وتعتبر الحقبة التالية، وقوامها أيضاً قرنان من الزمان، أهم حقب التاريخ العربي الإسلامي في سواحل شرق إفريقيا، حيث توسعت نفوذ العمانيين السياسية والتجارية والثقافية في هذه المنطقة لدرجة جعلتهم ينقلون عاصمتهم من مسقط إلى زنجبار (1832). ولم تنقض هذه الحقبة إلا وقد غطت المؤثرات العربية جميع مناحي الحياة: اللغة، والثقافة، والعادات والتقاليد، والمأكل والملبس .. الخ[6]. ثم دارت الأيام ووقع على هذه المنطقة ما وقع على معظم البلاد الإفريقية في مطلع القرن العشرين، أي الاستعمار، فأصبحت تحت سيطرة ألمانيا وبريطانيا، ودخلت الثقافة العربية الإسلامية فيها في تنافس مع الثقافة الغربية ذات الصبغة المسيحية. وفي أواخر سنين الاستعمار أخذت تنمو وسط السكان المحليين روح العداء ضد كل ما هو عربي، وبعد شهر واحد فقط من إعلان الاستقلال اندلعت ثورة زنجبار (12 يناير 1964) وعلى إثرها هرب السلطان العماني لاجئاً إلى لندن. ولقد كان هذا الحدث مأساة حقيقية في تاريخ الوجود العربي في شرق إفريقيا، لأن هذه الثورة التي قامت ضد السلطان العماني وأعوانه، كما ذكر سيد حامد حريز "امتدت إلى العرب من غير تمييز، وبذلك قتلت أعداد كبيرة من العرب، ولاذت بالفرار أعداد أكبر، وعاش من بقي بالجزيرة من العرب في عزلة سياسية واجتماعية"[7].

---

[4] - انظر سيد حامد حريز (1988): المؤثرات العربية في الثقافة السواحلية في شرق إفريقيا. بيروت، دار الجيل، ص 12.

[5] - بما أن هؤلاء الشيرازيين كلت تغلب عليهم الثقافة العربية فكانوا يصنفون في كثير من المصادر مع المجموعة العربية وليس كمجموعة فارسية مستقلة.

[6] - سيد حامد حريز، مرجع سابق، ص 47-70.

[7] - نفس المرجع، ص 29.

نبذة حول تاريخ الوجود العربي الإسلامي في إقليم غرب إفريقيا

لم يتحدث التاريخ عن صلات مباشرة بين الجزيرة العربية وا ٍقليم غرب إفريقيا، وبالتحديد بلاد هوسا، محور هذه الدراسة. وحتى بلاد المغرب الذي انطلق منه المد الإسلامي إلى داخل القارة ثم إلى بلاد هوسا فتفصل بينهما الصحراء الكبرى. لذلك نجد أنه، وعلى عكس ما رأينا بالنسبة لإقليم شرق إفريقيا، ليسللجغرافيا هنا دور يذكر في ربط بلاد العرب بإقليم غرب إفريقيا، وا ٍن كان قد لعب فيما بعد دوراً إيجابياً مهماً في حماية هذه المنطقة من انحسار الثقافة العربية الإسلامية كالذي شهده إقليم شرق إفريقيا. كما هو معلوم فقد تواصلت الفتوحات الإسلامية من مصر إلى بلاد المغرب (ثم الأندلس)، وتسلم البربر راية الإسلام من العرب وعبروا بها الصحراء الكبرى ثم تسلمها منهم المجاهدون من السكان المحليين، لا سيما التكرور والفولاني والماندينقو فقامت عدة ممالك وا ٍمبراطوريات إسلامية على امتداد الإقليم الذي عرف لدى قدامى المؤرخين بـ"بلاد السودان الغربي": مملكة غانا (المسلمة) (1076-1085) وا ٍمبراطورية مالي (حوالي 1100-1754)وا ٍمبراطورية صنغاي (1473-1591). وكذلك وصل الإسلام إلى بلاد كانم وبرنو عن طريق فزان منذ القرن الأول الهجري.

أما فيما يتصل ببلاد هوسا (شمال نيجيريا وجنوب النيجر الحاليتين) فقد نشأ المجتمع الهوسي مجوسياً واستمر هكذا على المستوى العام حتى القرن الرابع عشر الميلادي. إلا أنه من المؤكد أن هذه البلاد قدعرفت نوعاً من التوحيد وقدراً من الإسلام الذي كان يمارس مخلوطاً بالوثنية منذ القرن الثالث عشر الميلادي[8].

رغم أن أولى شذرات الإسلام جاءت إلى بلاد هوسا من مملكة كانم – برنو المجاورة لها من الناحية الشرقية، إلا أن المد الإسلامي ذا الأثر الفعال قد وصلها من ناحية الغرب، وفي البدء كان مصاحباً للحركة التجارية. فأول مجموعة من الدعاة المسلمين ورد ذكرها في كتاب "تاريخ أرباب كنو"[9] هي مجموعة الونقريين Wangarawa، وهم قوم من الماندينكا كانوا يجمعون بين التجارة والدعوة. وقد وصل هؤلاء إلى كنو في عهد الملك الصالح ياجي بن ثاميا (1349-1358) قادمين من ملي Malle (نسبة لمملكة مالي القديمة) وتمكنوا بمساعدة ذلك الملك من نشر إسلام أكثر نقاء ً وعلى مستوى أوسع في كنو وما جاورها. وفي هذا السياق يتحدث أحمد كاني عن إحدى مجموعات الونقريين التي هاجرت إلى بلاد هوسا في طريقها للحج، وكان فيها حوالي 3630 شخص ما بين عالم وقارئ[10]. ويمكننا تصور الأثر

---

[8] - M. Hiskett (1965): "The historical background to naturalization of Arabic loan words in Hausa", *African language Studies* VI, p. 21.

[9] - "The Kano Chronicle" in H.R. Palmer (1967): *Sudanese Memoirs*, Vol. II. London, Frank Cass & Co. Ltd.

[10] - أحمد محمد كاني (1987): الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ص 33.

الكبير الذي تركته هذه المجموعة في بلاد هوسا من ظهور الخلاوي القرآنية والحوزات العلمية التي أوجدت أرضية خصبة للإنتاج الفكري والثقافي فيما بعد.

وفي القرن التالي، وبالتحديد في عهد الملك يعقوب بن عبدالله برجا (1452-1463) وصلت أربع مجموعات من الوافدين إلى كنو، جاءت كلها بغرض الدعوة وبعضها مع التجارة أيضاً. وأهم هذه المجموعات جماعة الفولاني التي قدمت من ملي ضمن هجرة كبيرة بدأت تحط رحالها عند الأطراف الغربية من بلاد هوسا، على رأسها الشيخ موسى جكلو، الجد الثالث عشر للشيخ عثمان بن فودي. هذا بينما واصلت الهجرة الرئيسية إلى كنو وفيها عدد كبير من العلماء. وقد أجمعت المصادر أن هؤلاء الفولانيين أحضروا معهم كتباً في علم التوحيد والمذهب المالكي واللغة العر بية. وبعدها بعدة سنوات بدأت الأفواج العربية التي أشارت إليها رواية "تاريخ أرباب كنو" بـ "الأشراف"، بدأت تتدفق إلى تلك المناطق[11]. ومن بين هؤلاء العالم الجليل المغربي الشهير محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني (ت 1504) الذي وصل إلى كنو في عهد الملك محمد رمفا بن يعقوب (1463-1499) على رأس نخبة من العلماء بعد توقف قصير في بلاط مملكة كاتسينا.

لقد تزامن وصول الشيخ المغيلي إلى بلاد هوسا مع تولي ثلاثة من الملوك في ثلاث من أهم ممالك الهوسا، وهم محمد رمفا في كنو، ومحمد كرو (وبعده إبراهيم ماجي) في كاتسينا ومحمد رابو في زززو (زاريا). يذكر أحمد كاني أن ثلاثتهم اعتنى اعتناءً فائقاً بإحياء الشعائر الدينية ومحاربة الوثنية وا إضفاء الثوب الإسلامي على النظم السياسية[12]. ويضيف أن الشيخ المغيلي قد أحضر معه كتباً في الفقه، كما قام بإعداد كتاب خاص لملك كنو بعنوان "تاج الدين فيما يجب على الملوك" اعتبر بمثابة مسودة "دستور إسلامي"، اتخذه الملك أساساً لإعادة تنظيم دواوين دولته[13].

أخذ الإسلام ينتشر بخطى وئيدة من ممالك الوسط إلى الأطراف، وقد لعب العلماء القادمون من خارج بلاد هوسا ومجموعة العلماء المحليين الذين تتلمذوا عليهم دوراً مقدراً في ذلك. ولكن مع ذلك ظلت كثير من الممارسات الوثنية سائدة أيضاً وسط عامة الناس وفي بلاط بعض السلاطين الذين أبقوا عادة الاستعانة بالسحرة والمنجمين سبيلاً لتمكن سلطانهم. ويبدو أن النشاط الدعوي خلال القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر قد تمكن من توسيع رقعة الإسلام ولكن لم يفلح في إيقاف الممارسات الوثية التي كانت تمارس جنباً إلى جنب مع الإسلام حتى كادت تؤخذ وكأنها من الإسلام نفسه. وفي منتصف القرن الثامن عشر عندما شعر العلماء بخطورة هذا الأمر على الإسلام انبرى بعضهم – من

---

[11] - هناك الآن حي وسط مدينة كنو القديمة يعرف بـ "حي الأشراف"، من المرجح أن بيوتاته الكبيرة هم أحفاد هؤلاء العرب، إلا أنهم بمرور الزمن قد "تهوسوا" تماماً من حيث سحنتهم ولغتهم وثقافتهم.

[12] - أحمد محمد كاني، مرجع سابق، ص 35-36.

[13] - نفس المرجع، ص 37.

أمثال الشيخ جبريل بن عمر الطارقي[14] - للتصدي لهذه الظاهرة وأخذوا يوجهون النقد للسلاطين في تحد سافر لأعراف ذلك العصر. وفي بداية القرن التاسع عشر ذهب الشيخ عثمان بن فودي وشقيقه عبدالله (تلميذا الشيخ جبريل) يعاونهما ابن الأول (محمد بلو) – ذهبوا إلى أبعد من ذلك وأعلنوا الجهاد ضد ممالك الهوسا بهدف "تطهير الدين وتجديده". وبعد أربعة أعوام من المعارك تمكنوا من الإطاحة بجميع النظم القائمة آنذاك وا ٍقامة خلافة إسلامية قائمة على شرع الله، أي الخلافة الصكتية.

استمرت الخلافة الصكتية لقرن كامل من الزمان (1804-1903) وشملت كل شمال نيجيريا وأجزاء من جنوبها، إضافة إلى رقعة واسعة من جمهوريتي النيجر والكمرون الحاليتين. وقد اجتهد علماء هذه الخلافة في ترسيخ قيم الدين الحنيف وتربية الأجيال عليه مع تركيز خاص على نشر العلم والمعرفة. لذلك عندما سقطت هذه الخلافة في أيدي الاستعمار البريطاني لم تجد الإرساليات الكنسية موطئ قدم لها وسط المسلمين فيها. وقد حرص الآباء طيلة فترة الاستعمار على المحافظة على تعاليم الشيخ عثمان وحماية أبنائهم من التأثر بسلبيات الثقافة الغربية. وبعد نيل نيجيريا الاستقلال (1960) عمل السير أحمدو بيلو، حفيد الشيخ عثمان وأول رئيس وزراء شمال نيجيريا – عمل على ربط شمال نيجيريا بالعالم الإسلامي عن طريق ابتعاث الطلاب لتلقي العلم في البلاد العربية الإسلامية، وبالأخص السودان ومصر. ولهذا الرعيل الأول من هؤلاء الطلاب الفضل في إضفاء الصبغة الإسلامية في كل الأمور المتعلقة بالنشاط الفكري وبالتعليم والقضاء والإدارة بصورة عامة في شمال نيجيريا إلى يومنا هذا.

المؤثرات العربية الإسلامية في اللغة والثقافة السواحلية:

لا يتم الاتصال بين الشعوب إلا بالتواصل، ولا يتم التواصل إلا عبر اللغة. لذلك نجد أن ضرورة الاتصال والتواصل تقتضي تعلم أحد الشعبين لغة الآخر، وعند الضرورة القصوى تنشأ لغة هجين أساسها اللغة الأقوى (إما من حيث عدد المتحدثين بها أو من حيث نفوذهم السياسي والاقتصادي)، تتغذى بكمية كبيرة من ألفاظ وعبارات اللغة أو اللغات الأضعف. ولكن في كل الأحوال نجد أن اللغة أهم عنصر في عمليتي الاتصال والتواصل.

تعتبر للغة السواحلية أكثر اللغات تأثراً باللغة العربية، حتى ذهب البعض إلى الاعتقاد بأنها نشأت من اللغة العربية، بينما ظن آخرون أنها مزيج من اللغتين العربية والبانتوية. ففي الواقع كل من له قليل معرفة في مجال اللغات يعلم جيداً أن اللغة السواحيلية لم تنشأ من اللغة العربية، بينما يؤكد بعض علماء اللغة استحالة نشوء لغات مزيج[15]. على أية حال، هناك الآن إدراك واسع أن اللغة السواحلية لغة بانتوية تحتوي على قدر كبير من المؤثرات العربية، تكثر هذه المؤثرات لدى سكان الساحل وتقل تدريجياً كلما

---

[14] - أهم أساتذة الشيخ عثمان بن فودي، انظر ترجمته في: محمد بلو بن فودي (1964) : إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، القاهرة ، دار مطابع الشعب، ص 54-56.

[15] - Wm.E. Welmers (1973): *African Language Structure*. Berkeley, Uni. of California Press, pp. 7.15.

توغلنا إلى داخل القارة. ولكن الشيء الذي لم يتضح لدى كثير من الباحثين هو: كيف تم هذا التأثير وكيف دخلت هذه الألفاظ إلى صلب اللغة البانتوية؟ فكثير منهم يركن إلى فكرة الاقتراض الطبيعي، بمعنى أن متحدثي اللغة البانتوية قاموا باقتراض الألفاظ العربية، وهذا ما لا نتفق فيه معهم، ذلك لأن مثل هذا الاقتر اض المكثف الذي يكاد يجعل من اللغة المتلقية لغة هجيناً لا يتم إلا في حالة الثنائية اللغوية، كما في حالة اللغة العربية واللغات المحلية في السودان، حيث نجد أن جميع متحدثي اللغات المحلية تقريباً يتحدثون اللغة العربية أيضاً كلغة ثانية.

ففي تقديرنا إن ما حدث في زنجبار وغيرها من جزر وسواحل شرق إفريقيا هو أن العرب هم الذين بدأوا التحدث باللغة البانتوية (اونقوجا) البسيطة، وكانوا يكملون ما يعوزهم من ألفاظها أو ما يفتقر إليه قاموسها بألفاظ من لغتهم الأم، أي العربية. فأغلب المؤثرات العربية من أصوات وكلمات وعبارات وحكم وأمثال أدخلها العرب أنفسهم في اللغة البانتوية من خلال سعيهم للتواصل مع السكان المحليين، ثم تلقاها منهم السكان المحليون بهيئتها الجديدة هذهوا إذا كان هناك اقتراض في الاتجاه المعاكس فلابد أنه قد حدث في وقت متأخر.

يصعب تقدير نسبة الألفاظ العربية في اللغة السواحيلية، لأن هذا التأثير – كما أسلفنا – متفاوت بين الساحل والداخل، إلا أنه قد شمل جل أوجه الحياة، لا سيما الممارسات الإسلامية والتجارة والإدارة وبعض العادات والتقاليد. وهناك العديد من الدراسات المستفيضة والمتعمقة حول هذا الموضوع مما يغنينا عن الإسهاب في الحديث عنه في هذا المقال.

أما فيما يتصل بالثقافة السواحلية فقد أشار سيد حامد حريز إلى أن ملامح الثقافة العربية في المجتمع السواحلي تختلف من مكان لآخر داخل المنطقة السواحلية في قوتها وكثافتها[16]، وبالطبع بحسب موقع المكان قرباً أو بعداً من الساحل و الجزر، كما أسلفنا. وفي بعض الأماكن تقتصر هذه الثقافة فقط على اللغة والملبس، بينما تنعكس في أماكن أخرى في اللغة والعادات والمعتقدات والأزياء والمسكن والفنون..الخ.ونجد في مثل هذه الأماكن أن كثيراً من عناصر الثقافة والتراث مستمدة من الحياة العربية في عصورها الأولى، لا سيما العصر العباسي (قصص ألف ليلة وليلة). وكذلك إن عادات الولادة والختان والتربية والزواج والمأتم كلها ذات صبغة عربية إسلامية.

المؤثرات العربية الإسلامية في اللغة والثقافة الهوسية:

لقد رأينا في حالة شرق إفريقيا أن الاتصال بين اللغة العربية واللغة البانتوية التي تطورت عنها اللغة السواحلية كان اتصلاً مباشراً جرى بين متحدثي اللغتين، بل إننا نرى أن العرب هم الذين تحدثوا اللغة البانتوية أولاً وأكملوا حاجتهم بألفاظ ومفاهيم من العربية. على عكس من ذلك فإن الاتصال بين اللغتين

---

[16] - سيد حامد حريز، مرجع سابق، ص 48.

الهوسية والعربية كان في أغلب حالاته اتصالاً غير مباشر، أي عن طريق التقاليد الأدبية، وفي بعض الحالات عبر لغات وسيطة، أهمها البربرية والكانورية.

صحيح إن المصادر التاريخية قد أشارت إلى وجود العرب في مدينتي كنو وكاتسينا في شمال نيجيريا منذ القرن الخامس عشر الميلادي في شكل أفراد ومجموعات، و أن العرب الشوا قد استقروا حول بحيرة تشاد (في نيجيريا وتشاد والكميرون) منذ أمد بعيد، إلا أن هؤلاء العرب لم يكونوا في يوم من الأيام مؤثرين على الأوضاع اللغوية الاجتماعية في أماكن استقرارهم، بل كانوا – بحكم أنهم أقلية – يتعلمون اللغات السائدة في تلك الأماكن ويتواصلون بها.

في حقيقة الأمر إن تاريخ اللغة العربية في بلاد هوسا مرتبط ارتباطا وثيقاً بانتشار الإسلام في تلك البقاع، وا ن الهوسا أنفسهم ينظرون إلى اللغة العربية والدين الإسلامي بوصفهما وجهين لعملة واحدة. فأربعة قرون من الاتصال بين اللغتين عن طريق الإسلام والأدب والتجارة وبعض مناحي الحياة الأخرى تكفي للسماح للغة الهوسا باستيعاب كمية كبيرة من الألفاظ والعبارات العربية من كلا المصدرين الشفاهي والتحريري.

تضمنت قائمة الباحث اللغوي الأمريكي جوزيف غرينبيرج (1947)[17] حوالي 460 كلمة عربية مقترضة إلى الهوسا، بينما وصلت هذه الكلمات في قائمة اللغوي الإيطالي سيرغيو بالدي (1982) إلى حوالي 1250 كلمة[18]. وهذا العدد من الكلمات بمشتقاتها يقارب الـ 10% من جملة الكلمات الهوسية المكونة لقاموس ابراهام (1962)[19].

من الصعوبة أن نتحدث عن مؤثرات ثقافية عربية في المجتمع الهوسي كتلك التي رأيناها بالنسبة للمجتمع السواحلي، وذلك لعدم وجود مجتمعات عربية مؤثرة في بلاد هوسا. فما يمكن الإشارة إليه بالمؤثرات الثقافية هنا هي في الحقيقة مؤثرات إسلامية في المقام الأول لا تخرج عن صيغ عقد الزواج والاحتفال بالمناسبات الدينية الكبيرة كالمولد النبوي الشريف والأعياد الكبرى. وفيما عدا ذلك فالمجتمع الهوسي متمسك بعاداته وممارساته التقليدية في جميع أوجه الحياة الاجتماعية، كالمظهر والملبس والمعمار وعادات الولادة والزواج والمأتم وطبيعة العلاقة بين أفراد الأسرة وأفراد المجتمع.

نشأة وتطور الأدب المكتوب باللغتين السواحلية والهوسا

---

[17] - J.Greenberg (1947): "Arabic Loan words in Hausa", *Word* III.

[18] - Sergio Baldi (1988): A First Ethnolinguistic Comparison of Arabic Loanwords Common to Hausa and Swahili, Supplemento n. 57 agli *Annali* vol 48, fasc. 4.

[19] - R.C. Abraham (1962): *Dictionary of the Hausa Language*, London: Univ. of London Press.

رغم أنني لم أقم بإحصاء الكلمات ذات الأصول العربية في أيٍّ من قواميس الهوسا إلا أنني اعتقد أن نسبة هذه الكلمات أكبر من 10%.

نشأة الأدب السواحلي المكتوب

إن من أهم الآثار الإسلامية على الشعوب التي حظيت بنعمة الإسلام في آسيا وا إفريقيا، تطور أو نشأة أدب مكتوب بلغات هذه الشعوب، والذي يستمد جذوره من الأدب العربي الإسلامي. ونذكر على سبيل المثال في آسيا الأدب الفارسي الحديث والأدب التركي والأدب الأردي، وفي إفريقيا الأدب السواحلي والأدب الهوسي والأدب الفولاني. ولكن ما حدث في آسيا كان عبارة عن تطور، لأن لتلك الشعوب أدباً مكتوباً بأبجديات غير العربية كان موجوداً قبل تأثرهم بالثقافة العربية الإسلامية، بينما نجد أن الشعوب الإفريقية المذكورة أعلاه لم تعرف أدباً مكتوباً قبل دخول الإسلام، وأن آدابها المكتوبة نشأت منذ البداية متفرعة من الأدب العربي الإسلامي ومكتوبة بالحرف العربي.

لقد لاحظ الباحثون المهتمون بآداب الشعوب الإسلامية المسلمة في إفريقيا أن النشاط الفكري وسط هذه الشعوب يبدأ دائماً باللغة العربية نفسها ثم ينشأ على أثره الأدب المعبر عنه باللغات المحلية، لذلك فإن أقدم المخطوطات التي عثر عليها في سواحل شرق إفريقيا هما مخطوطتا كلوا وباتي، وكلتاهما كانت مكتوبة باللغة العربية. كما وجدت عبارات باللغة العربية مكتوبة على شواهد بعض القبور ترجع إلى القرن الثامن الميلادي. ولا يستبعد الباحثون وجود تراث أدبي مكتوب بالخط العربي قبل هذا التاريخ لم يتم اكتشافه بعد. على أية حال لا شك في أن كل هذه الآثار ترجع إلى العرب أنفسهم، وليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن للسكان المحليين يداً فيها. ولكن الأسئلة الأهم في هذا السياق: متى ظهر التراث الأدبي السواحلي المكتوب بالحرف العربي، وكيف نشأ، ومن هم رواده؟ أهُم العرب السواحليون أم السكان المحليون؟.

كما هو الحال بالنسبة للشعوب الإسلامية في غرب إفريقيا، والهوسا على وجه الخصوص – كما سنرى لاحقاً – فإن بداية التأليف باللغة السواحلية كان بالنظم، و أن أقدم النصوص التي تم العثور عليها في هذا الفن أربع قصائد مطولة ترجع إلى القرن الثامن عشر، وكلها قصائد تعليمية didactic[20]. ولعل أهمها وأقدمها كانت قصيدة الهمزية للشيخ عيدروس بن عثمان بن علي، وهي عبارة عن ترجمة لقصيدة باللغة العربية لشرف الدين البوصيري[21]. كما وجدت بعض المقتطفات من قصائد المولد مترجمة من القصائد العربية، ولكن لا يستبعد كنابرت (الباحث الإنجليزي المتخصص في الأدب السواحلي) وجود قصائد ألفت أصلاً باللغة السواحلية. ويحتوي الشعر السواحلي أيضاً على قصائد مطولة ذات طابع ملحمي. ولكن بما أن الملاحم غير معروفة في الشعر العربي فيرجح كنابرت أن السواحليين قد استلهموا هذا الفن من نماذج من الشعر الفارسي أو الأردي[22].

---

[20] - سيد حامد حريز، مرجع سابق، ص 94.

[21] - E.J. Knappert (197): *Swahili Islamic Poetry*, Leiden, E.J. Brill, P. 5.

[22] - نفس المرجع ، ص 9.

نشأ الشعر السواحلي إسلامياً وظل هكذا إلى يومنا هذا، وحتى ذلك الشعر الذي نظم بعد الاستعمار، رغم أن موضوعاته قد لا تكون إسلامية، إلا أنه إسلامي الروح والقالب. وقد استخدم الشعر السواحلي عدداً من الأوزان الشعرية العربية، وأهمها – حسب كنابرت[23]: kisarambe, ukawafi,shairi, utenzi . وقد لوحظ أن الوزنين الأولين يستخدمان لنظم الشعر ذي الأغراض الدنيوية، بينما نجد أن معظم ما ألف على الوزنين الأخيرين كان للأغراض الدينية. ويبدو أن وزن الـ ukawafi كان أقدم هذه الأوزان، إذ عليه نظمت القصيدة الهمزية. ولعل أهم ما ألف على وزن الـ kisarambe كانت قصيدة الانكشاف للشيخ عبدالله بن علي بن ناصر، وقوام هذا الوزن مقاطع من أربع شطرات، تحمل الشطرات الثلاثة الأولى قافية مستقلة، وتمثل قافية الشطر الرابع القافية الرئيسية للقصيدة، كما في المثال التالي من قصيدة الانكشاف:

أضحوا طعاما للديدان	Wasiriye kuwa kula kwa dudi
التي تمتص أجسادهم	na kuwatafuna zao jisadi
النمل يحطمهم ويقضي عليهم	na mtwa na tᶜungu huwafisidi
الثعابين والأفاعي تلتف حولهم	majoka na pᶜili wawataliye

كما هو واضح، لقد نظمت هذه الأبيات في وصف الموت وعذاب القبر وأهوال يوم القيامة، وهي نفس الصور التي تعكسها مشاهير قصائد الشيخ عبدالله بن فودي بلغة الهوسا، كقصيدة Bulaliya (السوط)، وJan Mari (القيد الأحمر)، و Bakin Mari (القيد الأسود). والوزن أعلاه يعتبر من الأوزان المتواترة في القصائد الهوسية.وقد لاحظ كنابرت تشابهاً شديداً بين الشعر السواحلي والشعر الهوسي، مما حداه إلى القول بوجود اتصال ما بين الثقافتين السواحلية والهوسية. ولكننا لا نشاركه هذا الاعتقاد، وذلك لأن التاريخ لم يدون لنا في أي وقت من الأوقات أيّ نوع من الاتصال بين بلاد هوسا (الخلافة الصكتية) وإقليم شرق إفريقيا. فالتشابه بين قصيدة الانكشاف مثلاً والقصائد الهوسية الشبيهة لها (كالتي أشرت إليها أعلاه) راجع إلى حقيقة أن العلماء في كلا الإقليمين يهدفون إلى أمر واحد (وهو الوعظ)، ويتبعون أسلوباً واحداً (الترغيب والترهيب) ويعتمدون على مصادر واحدة (القرآن والحديث وبعض الكتب الصفراء).

وقبل أن نختم هذا الجزء المتصل بنشأة الأدب السواحلي المكتوب، نشير إلى أن للنثر أيضاً موقعاً معتبراً في هذا الأدب.فمن قديم ما دون نثراً من الأدب السواحلي المكتوب بالحرف العربي هناك ما كان غير إسلامي، كفواتير شحن وتفريغ البضائع، والخطابات الشخصية، والمراسلات الدبلوماسية، وما شابه ذلك. وهناك أيضاً ما كان يتصل بالأدب الشفاهي النابع من التراث المحلي، كالأحاجي والأمثال وقصص الأرواح الخفية- الخ. أما الأدب العربي الإسلامي فيتمثل في المقام الأول في السيرة النبوية وقصص الأنبياء، وأدبيات العصر العباسي، وقصص ألف ليلة وليلة [24].

---

[23] - نفس المرجع ، ص 9.

[24] - انظر نفس المرجع، ص 14-16.

نشأة الأدب الهوسي المكتوب

إذا كان الأدب السواحلي قد نشأ بالتدرج، فإن الأدب الهوسي المكتوب - على عكس ذلك - كان نتاجاً للثورة العلمية التي صاحبت حركة الجهاد في بلاد هوسا وقيام الخلافة الصكتية.

لم يدون لنا التاريخ حتى العقود الأخير ة من القرن الثامن عشر أعمالاً ذات قيمة أدبية بلغة الهوسا. فكل ما وجد في العصور السالفة لم يتعد عبارات مدح كان ينظمها المادحون للملوك تصور مواقف بطولية بعينها، لم تكن لترقى إلى مستوى الشعر الشفاهي المألوف.ومؤخراً تم العثور على قصيدة في مدح باوا جنغرزو، ملك غوبر، ترجع إلى العقد الثالث من القرن الثامن عشر[25]. ولكن لا يمكننا الاعتماد على مثل هذه الأعمال التي لا نعرف حتى مؤلفيها للتحدث عن الأدب الهوسي المكتوب في تلك الفترة.

تو افر لقادة حركة الجهاد في بلاد هوسا قدر كبير من الإلمام بالأدب العربي الإسلامي، وألفوا كثيراً من الأعمال في العلوم الإسلامية (التوحيد والفقه والعبادات والجهاد والمعاملات والمواعظ ..الخ) باللغة العربية نثراًونظماً بغية هداية المجتمع وتهيئته للتغيير الذي يرمون إليه، كما سنرى لاحقاً . ولكن جاء وقت اتضح لهؤلاء العلماء أن ما كانوا يكتبونه باللغة العربية وحدها لا يفي بغرضهم بالصورة المطلوبة، ذلك لأن المستهدفين بهذا العمل (وهم الهوسا الفلاحون والفولاني الرعاة) أميون لا معرفة لهم باللغة العربية.لذلك كان لزاماً على قادة الحركة البحث عن وسيلة عملية أخرى لإيصال المعلومة إلى جماعتهم، وبالطبع لا يدخلفي ذلك تعليمهم العربية أولاً، وا ٍلا كم من الزمن يستغرق ذلك؟ فمن هنا جاءت فكرة اللجوء إلى اللغات المحلية السائدة، وأهمها الهوسا والفولانية.

و مع بداية القرن التاسع عشر بدأت مرحلة جديدة للحركة الفكرية الجهادية، وهي مرحلة النقل والترجمة، أي نقل العلوم ذات الصلة المباشرة بعامة المجتمع والتي سبق أن كتبوها باللغة العربية نثراً، نقلها وترجمتها أو إعادة صياغتها باللغات المحلية في شكل منظومات مقفاة. وقد كانت هذه العملية أشبه بعملية النقل والترجمة (من الثقافات الإغريقية والرومانية والفارسية والهندية) إلى العربية في العصر العباسي الأول. ولكن إلى جانب النقل والترجمة كان الشيوخ يقومون أيضاً بتأليف المنظومات باللغات المحلية مباشرة، وخاصة المواعظ. وقد كان الشيخ عبدالله بن فودي أبرز من نظم بلغة الهوسا، إلى جانب أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي التي كانت تقوم بترجمة قصائد والدها من اللغة الفولانية إلى الهوسا، كما قامت بتخميس البعض من هذه القصائد[26].

نشأت القصيدة الهوسية مشابهة للقصيدة العربية، حاملة في ثناياها جميع عناصر القصيدة العربية من حيث البنية وأساليب الإبداع، بما في ذلك الأوزان الشعرية والمحسنات البديعية.وقد وجد المستشر ق

---

[25] - لمزيد من التفاصيل انظر سيد حامد حريز ، مرجع سابق، ص 105-111.

[26] - تجدر الإشارة إلى أن لكل هؤلاء قصائد باللغة العربية أيضاً، وللشيخ عبدالله بن فودي ديوان شعر بعنوان 'تزيين الورقات' وللشيخ محمد بلو بن عثمان بن فودي ديوان آخر بعنوان 'إفادة الطالبين'.

الإنجليزي مارفن هسكت أن القصيدة الهوسية الإسلامية قد استخدمت عشرة من الأوزان الشعرية العربية[27]، ولا تختلف عن القصيدة العربية إلا في موضوعاتها، والتي تنحصر هنا في المسائل الدينية والجهادية. وتتبع القصيدة الهوسية في بنيتها الخارجية نهج المنظومات الدينية العربية السائدة في ذلك العصر، حيث تبدأ بالاستهلال المعهود – أي بالحمد والشكر للخالق المنان، ثم الصلاة على النبي المختار وعلى آله وأصحابه والتابعين الأخيار، ثم يرمز لتاريخ تأليفها بكلمة أو عبارة يمثل كل حرف منها رقماً معيناً، وهو ما يعرف بحساب الجُمّل (مثلاً عام شركد : عام 1224هـ).

التراث الفكري الإسلامي باللغة العربية في إقليمي شرق وغرب إفريقيا:

كما ذكرنا في المقدمة إن النشاط الفكري الإسلامي باللغة العربية يمثل المحور الأساسي لهذا المقال. فقد رأينا فيما تقدم مختلف الجوانب الفكرية والثقافية المعبر عنها باللغات المحلية (السواحلية والهوسا على وجه الخصوص) والتي تطورت عن الاتصال العربي الإسلامي بإقليمي شرق وغرب إفريقيا، سواء أكان ذلك الاتصال مباشراً (شرق إفريقيا) أو غير مباشر (غرب إفريقيا). والآن يحق للقارئ أن يسأل: أين موقع التراث الفكري الإسلامي المعبر عنه باللغة العربية في الخارطة الأدبية والفكرية التي تم عرضها أعلاه؟ كيف نشأ هذا التراث (إن وجد) ومن هم رواده؟

إذا استرجعنا ما ذكرناه حول قدم الصلات بين الجزيرة العربية وسواحل شرق إفريقيا وكثافة الوجود العربي في حقب التاريخ المختلفة في هذا الإقليم والوصول المبكر للإسلام فيه مقارنة بإقليم غرب إفريقيا، فإننا نتوقع وجود قدر من التراث الفكري الإسلامي باللغة العربية في الإقليم الأول يتناسب مع حجم ودرجة هذه المعطيات.ولكن ما نجده في الواقع صورة معكوسة تماماً عما كنا نتوقعه، أي شحاً ملاحظاً في الإنتاج الفكري الإسلامي باللغة العربية في إقليم شرق إفريقيا مع ضعف قيمته العلمية، وغزارته في إقليم غرب إفريقيا مع رفعة مستواه العلمي. فلنبدأ بتقديم عرض موجز لنشأة وتطور الحركة العلمية والتأليف باللغة العربية في غرب إفريقيا حتى نتمكن من استيعاب محدودية هذا النشاط في إقليم شرق إفريقيا.

ازدهار الحركة العلمية في بلاد هوسا

كان للعلماء الذين رافقوا الشيخ محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني- المذكور آنفاً - أو اتبعوا أثره إلى بلاد هوسا خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر الفضل في نشأة الحركة العلمية في تلك البلاد. فمع بداية القرن السادس عشر بدأت دوائر صغيرة للعلماء المحليين في النمو والازدهار حتى أضحت مراكز جذب للمهاجرين من الأقاليم الإسلامية الأخرى، وبالأخص مملكة كانم برنو وشمال إفريقيا ومصر. فهؤلاء العلماء المهاجرون لبلاد هوسا أو الذين كانوا على اتصال بها يمثلون في الحقيقة

[27] - M. Hiskett (1975): *History of Hausa Islamic Verse*. London, SOAS, P. 179.

الجذوة التي اندلعت منها حركة الفكر والأدب باللغة العربية في تلك البلاد، والتي استمرت في النمو والتطور إلى أن انتهت بـ "الثورة الفكرية" التي صاحبت حركة الجهاد وقيام الخلافة الصكتية في العقد الأول من القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أن الفترة من بداية القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر لم تنجب من العلماء المحليين المرموقين سوى القليل، إلا أن أعمال هؤلاء العلماء – بمقاييس ذلك العصر – كانت على درجة من الجودة تستحق الوقوف عندها. فمن هؤلاء العالم الكنوي عبدالله ثقة (سكا) الذي ألف منظومة بعنوان "العطية للمعطي" بيَّن فيها الأوجه المختلفة للعبادات. وتعتبر هذه المنظومة بداية للتأليف المحلي بالنظم وأنموذجا انتشر على شاكلته هذا الفن في كل المناطق[28]. ومن هؤلاء أيضاً العالم الكشناوي ابن الصباغ المعروف بـ "دان مرينا" (ت 1655) الذي قام لأول مرة بشرح وتحليل قصيدة العشرينية للفزازي في كتاب له بعنوان "الوسائل المتقبلة". ومن أعماله التي اشتهر بها كتابه "مزجرة الصبيان" الذي بيَّن فيه فروع العلم والمعرفة التي تناولها وتذوقها علماء عصره في بلاده، ومنها الشريعة والتوحيد والحديث والنحو والفلك وفنون التلاوة وعلم العروض والقوافي والفلسفة. ومن مشاهير كاتسينا أيضاً الشيخ ابن العارف (دان مسنى)، ويذكر الشيخ محمد بلو بن فودي أن لابن العارف مؤلفات تدل على وفرة علمه، منها "النفحة العنبرية في شرح العشرينية"، و"بزوغ الشمسية في شرح العشرينية"، و"ازدهار الربا في أخبار يوربا"[29]. ومن علماء تلك البلاد في ذلك العصر الشيخ هارون الزكزكي، شيخ الشيوخ الفلاني، كما يشير إليه محمد بلو. وله قصائد ومؤلفات منها ما نظمه على رواة البخاري، أي رواية الفروع عن الأصول. ومنهم أيضاً الشيخ على جب، صاحب الشرح على الكبرى والشرح على لامية الأفعال. هؤلاء هم مشاهير علماء ذلك العصر، ولا شك أن هناك كثيراً غيرهم ممن هم دون مستواهم.

إن الخلل الاجتماعي والروحي الذي أصاب مجتمع بلاد هوسا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر قاد إلى ظهور نوع جديد من الكتابات تنتقد المجتمع لشدة تراخيه في الممارسات الإسلامية مع خلطها بالممارسات المجوسية، وتنتقد الحكام علناً لجورهم وخروجهم عن جادة الطريق، وتدعو إلى النهوض لتطهير الدين وا إصلاح المجتمعوأشهر رواد هذا النو ع من الأدب الشيخ جبريل بن عمر الطارقي بقصيدته "شفاء الغليل". ثم تسلمت الراية منه مجموعة العلماء الذين قادوا حركة الجهاد، وهم ابنا محمد فودي – عثمان وعبدالله – وأبناؤهما وأصحابهما وتلامذتهما. وقد كان التفقه في الدين سمة متوارثة في أسرة فودي، إلا أن عقد هؤلاء المذكورين النية للقيام بأمر إصلاح المجتمع مع كل ما يترتب على ذلك من مجابهة من يسمونهم بـ"علماء السوء" المتحالفين مع الملوك – كل هذا كان مدعاة لهم للتسلح بمزيد من العلم والتعمق فيه. وقد كان هذا بالفعل ديدنهم، إذ يذكر الشيخ عبدالله بن فودي في كتابه "إيداع النسوخ من أخذت من الشيوخ" خمسة عشر من مشاهير العلماء الذين أخذ عنهم شتى فنون العلم

---

[28] - نفس المرجع، ص 15.

[29] - محمد بلو بن فودي، مرجع سابق، ص 52.

والمعرفة داخل بلاد هوسا وخارجها، رغم ذلك يختم بقوله "الشيوخ الذين أخذت عنهم لا أحصيهم الآن ولكن هؤلاء مشاهيرهم". ونظرة في مكان آخر من هذا الكتاب تكفي لتصور غزارة العلم الذي كانوا يسعون للحصول عليه ورفعة درجته:

"ومن الشيوخ الذين أخذت العلم عنهم أمير المؤمنين شقيقي عثمان بن محمد.. .وقد تركني أبي في يده بعد قراءة القرآن وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فقرأت عليه العشرينيات والوتريات والشعراء الستة وأخذت منه علم التوحيد من الكتب السنوسية وشروحها وغيرها وقلّ كتاب وصل إلى بلادنا وعرفته ولم أنقله. وأخذت عنه الأجرومية والملحة والقطر ونحوها وشروحها. وأخذت منه علم التصوف الذي للتخلق والذي للتحقق ما استغنيت به إن شاء الله عن غيره. وأخذت منه كتب الفقه ما يعرف به فرض العين مثل الأخضرية والعشماوية ورسالة بن أبي زيد وغيرهما.وأخذت عنه تفسير القرآن من أول الفاتحة إلى آخر القرآن مراراً لا أعرف قدرها وأخذت منه علم الحديث دراية العراقي ورواية البخاري ما مرّ ننني على غيرها. وأخذت منه علم الحساب القريب منه واليسير وحصل لي بحمد الله التبصر في الدين من فيضان نوره ومن تواليفه المفيدة، العربية والعجمية.فما ألف كتاباً من أول تواليفه إلى الآن إلاّ كنت أول من نقله غالباً "[30].

لقد أخذ هؤلاء القادة ذلك الكم الغزير من العلم واستوعبوه ووظفوه للتصدي لقضايا مجتمعهم الملحة، فكان إنتاجهم منه بقدر غزارة ما اكتسبوه أو أكثر، وكل ذلك رغم انشغالهم بحركة الجهاد وتأسيس الدولة الإسلامية الجديدة.فخلّف لنا أفراد الأسرة الفودية (الشيخ عثمان وعبدالله ومحمد بلو والمنحدرون منهم) وحدهم ما جملته 723 عمل[31] باللغة العربية فقط، تتراوح من منظومة طويلة إلى مجلد ضخم (غير ما ألفوه باللغات المحلية – هوسا وفلفلدي)، تفاصيلها كما يلي:

- الشيخ عثمان بن فودي : 154 عمل، أضخمها "بيان وجوب الهجرة على العباد".
- الشيخ عبدالله بن فودي : 112 عمل، أضخمها "البحر المحيط في النحو" في 4000 بيت على نمط ألفية ابن مالك، وكتاب " صفاء التأويل في معاني التنزيل"، وهو كتاب تفسير للقرآن.
- الشيخ محمد بلو بن فودي : 162 عمل، أضخمها "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور".
- المنحدرون منهم : 295 عمل (لم أتمكن من الاطلاع على عدد وافٍ منها).

وقد غطت هذه الأعمال كل فنون العلوم الإسلامية وضروبها تقريباً، وتناول بعضها موضوعات وقضايا خاصة بمجتمعهم الضيق، كما كتب الشيخ محمد بلو في الطب النبوي والطب الحديث (بمعايير عصره). ولعل أهم ما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق ما كتبه الشيخ عبدالله بن فودي في اللغة العربية، وأعني مؤلفه المذكور "البحر المحيط في النحو" ومؤلفه الآخر "الحصن الرصين في علم التصريف" (1036 بيت)، وديوانه "تزيين الورقات بما لي من الأبيات" الذي يحوي قصائد من عيون الشعر العربي.

---

[30] - عبدالله بن فودي (1958): إيداع النسوخ من أخذت من الشيوخ، زاريا، مكتب نولا، ص 2.

[31] - تم حصر هذه الأعمال من القوائم الواردة في:

J.O. Hunwick (1995): *Arabic Literature of Africa, Vol. 2: The Writings of Central Sudanic Africa*, Leiden, E.J. Brill.

تم نقل هذا الكتاب إلى العربية بواسطة الأمين أبومنقة على نفقة مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (لندن)، وهو الآن تحت الطبع.

يجب ألا يفهم مما تقدم أن التأليف باللغة العربية في فترة الخلافة الصكتية كان محصوراً في الأسرة الفودية. فإذا عدنا إلى لغة الأرقام مرة أخرى نجد أن جملة ما تم العثور عليه من مخطوطات ومطبوعات باللغة العربية منذ فترة الفوديين إلى عام 1995 في المساحة المعروفة سابقاً ببلاد هوسا (من مشارف برنو إلى الحدود الغربية لإمارة صكتو) قد بلغ 1594 عمل ما بين قصيدة ومجلد ضخم (يدخل في ذلك أعمال الفوديين أيضاً).وهذا العدد يكفي للاستدلال على أن التأليف باللغة العربية أضحى تقليداً راسخاً في شمال نيجيريا. ولا ننكر أن نظام التعليم المدرسي القائم على النظم الغربية قد أثر سلباً على حيوية هذا التقليد، إلا أن تمسك مجتمعشمال نيجيريا بالخلاوي والدهاليز التقليدية قد ساعد كثيراً على استمرارية هذا التقليد واستدامته. فقائمة مؤلفات الشيخ ناصر كبرا الذي توفي في كنو قبل أقل من عشرة أعوام تقف شاهدة على ذلك، إذ ضمت حوالي 150 عمل باللغة العربية.

التأليف باللغة العربية في شرق إفريقيا:

لم يشر كنايرت (1971) - ويعتبر أهم مرجع في الأدب السواحلي – إلى أي عمل باللغة العربية نظماً كان أو نثراً يرجع إلى القرون الماضية أنجزه مؤلف سواحلي حتى من ذوي الجذور العربية، دعك من السكان المحليين. وقد أكد سيد حامد حريز أن الشعراء في شرق إفريقيا قد نظموا باللغة العربية في أغراض مختلفة[32] ولكن دون الإشارة إلى شاعر بعينه، مما قد يوحي بمحدودية هذا الجانب من النشاط. وبما أننا بصدد المقارنة مع ما هو حادث في إقليم غرب إفريقيا، كان يهمنا أيضاً معرفة هوية هؤلاء الشعراء، وقد رأينا أن أولى القصائد السواحلية التي تم العثور عليها في إقليم شرق إفريقيا كانت من نظم شعراء ذوي أصول عربية (أو فارسية).

أما في النثر باللغة العربية فلم يورد سيد حامد حريز في كتابه الجامع حول المؤثرات العربية في الثقافة السواحلية، لم يورد أيَّ عمل في هذا السياق. وقد أورد عبدالرحمن أحمد عثمان في ثبت المصادر والمراجع لكتابه "المؤثرات الإسلامية والمسيحية على الثقافة السواحيلية"[33] أربعة كتب وخمس مخطوطات لمؤلفين من داخل المنطقة قيد الدراسة أو ما جاورها. والمؤلفون هم: سعيد بن علي المغيري، والشيخ محي الدين الكلوي، وسالمة بنت سعيد بن سلطان، والشيخ إدريس بن محمد القادري، وبرهان بن مكلا القمري، وعبدالله محمد باكثير الكندي، وعبدالله بن زين الوهط السقاف، بالإضافة إلى راشد البراوي الذي كتب عن الصومال الجديد. ويلاحظ من خلال هذه الأسماء أن أغلبية هؤلاء المؤلفين ينحدرون من أصول غير محلية، كما يلاحظ غياب الأعمال الفكرية المتعمقة في العلوم الإسلامية كالتوحيد والفقه والتفسير وعلم الكلام أو أعمال في اللغة العربية على شاكلة مؤلفات الشيخ عبدالله بن فودي المذكورة أعلاه.ومن المعروف أن أسرتي النبهاني والمزروعي قد أسهمتا كثيراً في دفع عجلة الحركة الفكرية في

---

[32] - سيد حامد حريز، مرجع سابق، ص 112.

[33] - عبارة عن رسالة دكتوراة ، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم، عام 1993 .

إقليم شرق إفريقيا، وألف بعض أفرادها كثيراً باللغة السواحلية، وكنا نتوقع أن نقف على أعمال لهم باللغة العربية أيضاً .

بالطبع لا يمكن الاعتماد على قائمة عبدالرحمن أحمد عثمان في الحكم على حجم التأليف باللغة العربية في إقليم شرق إفريقيا، وقد أفاد عبدالرحمن بنفسه بأنه لم يتمكن من الوقوف على كثير من المخطوطات، وبالأخص تلك التي في حوزة أسر سلاطين الأباضية[34]. ولكن حتى إذا افترضنا أن هناك أعمالاً في هذا السياق ذات أهمية علمية، فلا نعتقد أنها قد بلغت من حيث الكم والن وع ما تم إنجازه في الطرف الآخر من القارة،ولا فلماذا لم تحظ بالشهرة والنشر والانتشار؟ على أن أهم من ذلك كله ملاحظة أن جميع ما أنجز في بلاد هوسا (1594 عمل) باللغة العربية كان من تأليف علماء محليين أصولهم من داخل المنطقة. ومن هنا يجئ السؤال المحوري في هذا المقال: لماذا تطورت الحركة العلمية في بلاد هوسا منذ وقت مبكر واستمرت جذوتها متقدة إلى يومنا هذا وخلّفت لنا هذا الأثر الضخم من التراث العربي الإسلامي المعبر عنه باللغة العربية؟ لماذا لم يحدث شيء كهذا في إقليم شرق إفريقيا رغم الوجود العربي المبكر جداً في هذا الإقليم؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا الجزء الأخير من المقال.

مناقشـــة:

إن البون الشاسع بين إقليمي شرق إفريقيا وغربها فيما يتصل بحركة التأليف باللغة العربية مرجعه إلى عدة عوامل يمكن تصنيفها في عوامل تاريخية وجغرافية. فتاريخ الوجود العربي في شرق إفريقيا يغلب عليه الطابع التجاري والسياسي، إذ لم أجد مصدراً تحدث عن منشأ الصلات بين الجزيرة العربية وسواحل شرق إفريقيا لم يبدأ بالرياح الموسمية والسفن التجارية والقرنفل والزنجبيل. أما الهجرات الاستيطانية فقد كان أهم أسبابها النزاعات السياسية أو الطائفية في الجزيرة العربية (أو بلاد فارس)، لذلك كانت في أغلب الأحايين عبارة عن لجوء سياسي. فقد قدم الجلنديون الأباضية إلى هذا الإقليم بعد أن خسروا حرباً ضد الأمويين في عمان. وكذلك لجأ الشيعة الشيرازيون إليه عندما سقطت بلادهم في أيدي السلاجقة. ويذكر عبدالرحمن أحمد عثمان أن هجرة النبهانيين كانت فراراً من الاضطهاد السياسي[35].وأخيراً بسط العمانيون سيطرتهم على هذا الإقليم بعد معارك طويلة مع البرتغاليين على شاكلة ما كان يقع بين القوى العظمى في ذلك العهد بغرض السيطرة على منافذ التجارة بالوسائل العسكرية. وفي جميع هذه الحالات لم تتحدث المصادر عن استقدام الحكام لعلماء متخصصين لنشر العلم وسط السكان المحليين، ولم نسمع عن هجرة مجموعات من الدعاة لا هدف لهم سوى الدعوة للإسلام. ولا ننكر جهد هؤلاء الحكام والتجار في نشر الإسلام في تلك المنطقة، ولكن طالما أنهم كانوا يمارسون الدعوة بحسبانها نشاطاً جانبياً فيصبح من الطبيعي أن يحدث توسع أفقي للإسلام وسط السكان المحليين دون أن تصاحبه حركة فكرية ينشأ منها

---

[34] - إفادة شفاهية، بتاريخ 2003/10/27 .

[35] - عبدالرحمن أحمد عثمان، مرجع سابق، ص 87.

علماء محليون متبحرون في العلوم الإسلامية على نسق ما حدث في غرب إفريقيا. ويبدو أن الحكام والتجار المهاجرين أنفسهم لم يكن لديهم من المعرفة المتعمقة في هذا المجال ما كان يمكن أن يوصلوه إلى السكان المحليين.

أما إذا نظرنا إلى الطرف الآخر من القارة فنجد أن الصورة معكوسة تماماً . وكما أسلفنا فإن بلاد هوسا تفصللهعن الجزيرة العربية مساحات شاسعة من اليابسة، وا ٕن الإسلام قد وصلها عبر هجرات مجموعات سكانية وسيطة: البربر والماندينكا والفولاني القادمين من أقاصي الغرب، بالإضافة إلى البرنو، ولم يدخل العرب في هذا الأمر إلا في شكل أفراد أو مجموعات صغيرة. إلا أن طبيعة هجرات كل هذه المجموعات المذكورةأعلاه ودافعها الأساسي وراء القدوم إلى بلاد هوسا يختلف تماماً عن طبيعة الهجرات العربية والفارسية المسلمة إلى شرق إفر يقيا. فلم يرد ذكر هجرة من الهجرات المشار إليها إلى بلاد هوسا إلا وكان على رأسها عالم داعية كالمغيلي، أو قوامها علماء متفقهون في الدين جاءوا بغرض الدعوة، وكثيراً ما تذكر أصناف الكتب والعلوم التي أحضروها والتحول النوعي الذي أحدثوه فيما يتصل بالدعوة ونشر العلم. أما التجارة المنظمة وبسط النفوذ السياسي فلا مكان لهما في تاريخ هذه الهجرات. وحتى الدولة التي أسسها الشيخ عثمان بن فودي في مطلع القرن التاسع عشر فقد قامت في إطار الدعوة لتطهير الدين وتجديه، وكل قادتها وا ٕدارييها كانوا علماء لا يشق لهم غبار، اشتهروا بالزهد والورع والابتعاد عن ملذات الحياة. فحركة الجهاد التي انتظمت بلاد هوسا في مطلع القرن التاسع عشر كانت امتداداً طبيعياً للحركة العلمية التي اندلعت منذ القرون الأولى من دخول الإسلام إلى تلك المنطقة، وفي الوقت نفسه كان كذلك للجهاد دور عظيم في السمو بالحركة العلمية التي أقصى مداها، كما هو واضح من خلال حجم التأليف باللغة العربية (واللغات المحلية) ورقي مستواه في دولة صكتو الإسلامية. وكان من نتاج ذلك تعميق روح الإسلام في عامة الناس بالقدر الذي مكنهم من مقاومة الاستلاب الفكري إبان فترة الاستعمار ، وحرم المنظمات الكنسية من موطئ قدم في حاضرات ولايات الخلافة (اللهم إلا من بعض الجيوب الصغيرة في الأدغال).

وهناك عامل جغرافي آخر لعب دوراً مهماً في عرقلة مسار الثقافة العربية الإسلامية في شرق إفريقيا وعمل على حماية هذه الثقافة في غرب إفريقيا. فسواحل شرق إفريقيا بحكم موقعها الاستراتيجي في طريق التجارة بين أوربا وجزر الهند الغربية، وبحكم ما كانت تتمتع به من خيرات تجارية، ظلت على مدى التاريخ منطقة صراع وتنافس بين مختلف القوى العظمى. فوقعت تحت سيطرة البرتغاليين لقرنين من الزمان لا أحسب أن النشاط الفكري الإسلامي خلالهما قد وجد حظاً يذكر للانطلاق. فكانت هذه الحقبة بمثابة فترة خمول أو ربما "بيات" لهذا النشاط. على عكس من ذلك إقليم بلاد هوسا الذي يقع بعيداً عن الساحل ولم يكن به من الموارد التجارية ما كان يثير اهتمام القوى العظمى خلال القرون الوسطى. لذلك ظلت الحركة الفكرية الإسلامية فيه تنمو في مسارها الطبيعي دون اعتراض (من الخارج) إلى أن وصلت قمتها مع حركة الجهاد المشار إليها آنفاً .فلم تعرف هذه المنطقة استعماراً إلا في مطلع القرن العشرين،

ووقتها وصل الوعي الديني لدى عامة الناس درجة يستحيل معها أي نوع من الاختراق. وفي بادئ الأمر قرر مسلمو الخلافة الصكتية مقاومة كل ما يمت للمستعمر "الكافر" بصلة، وبلغ ببعضهم حد التخلي عن ديارهم فراراً بدينهم[36]. ثم بدأوا تدريجياً يتقبلون منه العلوم الغربية ولكن دون أن يؤثر ذلك على موروثهم الثقافي الذي ينبني على التراث العربي الإسلامي.لذلك لا غرو إن خلّف لنا الشيخ ناصر كبرا (المتوفي بكنو قبل أقل عشرة أعوام – كما أسلفنا) حوالي 150 عمل باللغة العربية.

خاتمـــة:

لقد رأينا فيما تقدم أن إقليم شرق إفريقيا قد عرف المؤثرات العربية الإسلامية منذ وقت مبكر بسبب الهجرات العربية الاستيطانية المباشرة من الجزيرة العربية (وبلاد الفرس) ذات الدوافع التجارية والسياسية، انعكست هذه المؤثرات في الأدب الشفاهي المعبر عنه باللغة السواحلية وفي العادات والتقاليد، دون أن ينتج عن ذلك تطور تقاليد أدبية وفكرية باللغة العربية وسط السكان المحليين. أما بلاد هوسا في غرب إفريقيا فقد وصلها الإسلام في القرن الرابع عشر عن طريق الهجرات الداخلية ذات الدوافع الدينية (دعوية)تطورت إثرها مراكز إشعاع فكري قوامها سلسلة من العلماء المحليين خلّفوا تراثاً عربياً إسلامياً قيماً باللغة العربية. إذاً يمكن القول أن مجرد وجود صلات مع الجزيرة العربية (مهد الإسلام والعروبة) لا يقود بالضرورة إلى ازدهار الفكر العربي الإسلامي في بقعة ما في الأرض، ولكن الأهم من ذلك طبيعة هذه الصلات ودوافعها. فالإسلام وتوابعه من نشاط دعوي وحركات جهادية يمثل المرتكز الأساسي الذي يقوم عليه التاريخ الوسيط لإقليم غرب إفريقيا، وللعلماء دور كبير في صناعة هذا التاريخ. وتعتبر اللغة العربية عند هؤلاء العلماء وجهاً من أوجه الإسلام، لها من القدسية – باعتبارها لغة الإسلام والمفتاح إلى العلوم الإسلامية - ما يجعلتعلمها والكتابة بها من الواجبات، ربما اهتداءً بمقولة سيدنا عمر بن الخطاب "تعلموا العربية فأنها من دينكم". لذلك لا غرو إن ترك لنا هؤلاء العلماء تقاليد راسخة في مجال التأليف بهذه اللغة.

إن عدم تطور تقاليد أدبية عربية إسلامية باللغة العربية في إقليم شرق إفريقيا قد أثر سلبا على وضع الثقافة العربية الإسلامية في المجتمع السواحلي المعاصر، ومن الأمثلة لذلك عدم الاهتمام بالدراسات العربية الإسلامية على مستوى الجامعات.فجامعة دار السلام ليس بها شعبة للغة العربية، وإن شعبة اللغة العربية بجامعة نيروبي ظلت إلى عهد قريب تعاني من الضعف والإهمال. هذا بينما نجد في الطرف الآخر أن قسم اللغة العربية كان من أول الأقسام التي أنشئت في الجامعات الكبيرة في شمال نيجيريا.

---

[36] - قرر أمير المؤمنين الطاهر الأول عدم البقاء تحت إمرة النصارى، فخرج بجماعته من صكتو في مارس عام 1903مهاجراً نحو الشرق، وبعد استشهاده في المعركة الفاصلة في برمي في يوليو نفس العام واصل ابنه محمد بلو مي ورنو الهجرةالتي انتهت باستقرار المهاجرين على النيل الأزرق وسط (جمهورية) السودان.

ثبت المراجع

أحمد محمد كاني (1987): الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي.

الأمين أبومنقة (1989): الأسس الفقهية لهجرة أمير المؤمنين الطاهر الأول من سكتو، دراسات إفريقية، العدد الخامس.

سيد حامد حريز (1988): المؤثرات العربية في الثقافة السواحلية في شرق إفريقيا، بيروت، دار الجيل.

عبدالرحمن أحمد عثمان (2001): المؤثرات الإسلامية والعربية على الثقافة السواحلية، الخرطوم، دار جامعة إفريقيا للطباعة النشر.

عبدالله بن فودي (1958): إيداع النسوخ على من أخذت من الشيوخ، زاريا، مكتب نولا.

محمد بلو بن فودي (1964): إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، القاهرة، دار ومطابع الشعب.

Abraham, R.C. (1962): *Dictionary of the Hausa Language*. London: Univ. of London Press.

Anonymous (undated): "The Kano Chronicle", in Palmer, H.R. (1967): *Sudanese Memoirs*, Vol. II. London: Frank

Greenberg, J. (1947): "Arabic loan words in Hausa", *Word* III.

Hiskett, M. (1965): "The historical background to naturalization of Arabic loan words in Hausa", *African Language Studies* VI.

---------- (1973): "The origin, sources and form of Hausa Islamic verse", *Spectrum* III.

---------- (1975): *History of the Hausa Islamic Verse*. London: SOAS.

Hunwick, J.O. (1995): *Arabic Literature of Africa, Vol 2: The Writings of Central Sudanic Africa*. Leiden: E.J. Brill.

Knappert, E. J. (1971): *Swahili Islamic Poetry*. Leiden: E.J.Brill.

Marsh, Z. (undated): East Africa through Contemporary Records, quoted in The Priplus of the Erytherian Sea, by an anonymous writer, translated by J.L. Whitely, Cambridge Univ. Press, 1961.

Sergio Baldi (1988): A First Ethnolinguistic Comparison of Arabic Loanwords Common to Hausa and Swahili, Supplemento n. 57 agli *Annali* vol 48, fasc. 4

Welmers, Wm.E. (1973): *African Language Structure*. Berkely: Univ. of Calefornia Press.